رابعة العَدویه

القسم الثانی

زهرا سلیمانی ـ فارغ التحصیل
زبان و ادبیات عربی

هل هي تزوجّت ؟

" و حين طرق بابها طارقٌ للزواج، و هي في إبان المجاهدة و العبادة صدّته بعنف و اباء، متهكّمة بمن جاء يغريها من أجل نفسه أو غيره، و هذا الاعراض منها على الزواج و تأنيب من دعاها اليه من الزهاد هو تأييد لمذهب الحسن البصرى الذى كان يرى الزواج مشغلة عن التهجد و ذكر الله فمن قوله " اذا أراد الله بعبد خيراً فى الدنيا لم يشغله بأهل ولاولد".[1]

"و خطبها عبدالواحد بن زيد فقالت "يا شهواتى اطلب شهوانية مثلك اي شيء رأيت فيّ من آلة الشهوة"، و خطبها محمدبن سليمان الهاشمى أمير البصرة بصداق مائة ألف درهم فكتبت اليه: "أما بعد فان الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن، و الرغبة فيها تورث الهمّ و الحزن، فاذا أتاك كتابي فهيء زادك و قدم لمعادك،... فما يسرّنى انك لى عبد و ان كل ما تملكه لى و انك شغلتني عن الله طرفة عين ".[2]

و لما سئلت رابعة لما ذا لا تتزوجين؟ اجابت:"هناک ثلاثة أشياء هى سبب الهم عندى، فاذا وجد من يخلصنى منها تزوجت! الاول: هل اذا مت أستطيع أن أتقدم بايمانى طاهراً؟ و الثاني: اذا كنت سأعطي كتابي بيميني يوم القيامة، والثالث: اذا جاء يوم البعث و أخذ أصحاب الميمنة الى الجنة و أصحاب المشأمة الى العسير، فمن أيّ الفريقين سأكون؟ و انما علمه عند ربي و اذا كان الامر كذلک و أنا فى قلق من هذه الاشياء فكيف أحتاج الى الزوج و أتفرغ له؟" [3]

و من هذاالكلام و ما اشباهه فيا روى عن رابعة و جاء فى اخبارها يتبين لنا أنها استمسكت برايها فى الزهد و التفرغ للعبادة و الاعراض عن كل ما يربطها بالدنيا، و مظهر من هذا الاعراض هو الامتناع من الزواج و هو أمنية المرأة و بغيتها فى الحياة و أنشدت فى رفضها هذا:

"راحتي يا اخوتي في خلوتي
و حبيبي دائماً فى حضرتي
لم اجدلى عن هواه عوضا
و هواه فى البرايا محنتى

---

١) السكاكيني، وداد. نفس المصدر، ص ٣٥

٢) ابوطالب المكى ـ محمدبن على: قوت القلوب، دار صادر، بيروت، ج ٢، ص ٥٧

٣) انظر كتاب العاشقة المتصوفة رابعة العدوية لوداد السكاكيني، ص ٣٦

حيثماً كنت اشاهد حسنه
فهو محرابي اليه قبلتي
يا طبيب القلب يا كل المنى
جد بوصل منك يشفي مهجتي
يا سروري و حياتي دائماً
نشأتي منك و ايضاً نشوتي
قد هجرت الخلق جمعاً ارتجى
منك وصلاً فهو أقصى منيتي "[1]

أدّت رابعة فريضة الحج :

لقدكتب على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً، فصار أمنية المتمني من المسلمين و أمل الزهاد و المتهجدين في سفر طويل ثقيل. رأينا الزهاد في زمن رابعة أكثر المسلمين إقبالاً على الحج، و احتالاً لمتاعبه، فكانوا يقطعون المسافة بين البصرة و مكة في سنين متطاولة دون مبالاة الى الخطر و المرض و التعب.

و رابعة أيضاً لقد أغرمت بالذهاب الى الحج سعياً على قدميها أو تقلّباً على جنبيها، فيا رَوَوا. و قد عدّدت سفراتها الى أرض الكعبة و منزل الوحي، فأدت فريضة الحج على شوق، و حققت أمانيها فيه و كانت ترتحل مع القافلة في الصحراء، لاتبالي تعباً و لا خطراً، بل كانت تناجي ربها و الركب سادر فوق الرمال فتقول: "الهي وعدت بجز أين لأمرين: القيام بالحج و الصبر على الشدائد، فأن لم يكن حجي صحيحاً مقبولاً عندك، فيا ويلتاه أو ما أشد هذه المصيبة عندي!" فالتمست فيه من الله أن يتقبل حجّها و إن لم يتقبل فواضيعة جهدها.[2]

و قد نسبت الى العدويه في هذا العهد حوادث و حكايات أشبه بالاساطير، فقد روت أكثر المصادر التاريخية أموراً تجلت فيها كرامات رابعة، منها أنها لما سافرت الى الحج في القافلة كان معها حمار يحمل متاعها، و في أثناء الطريق هلك الحمار، فتوقفت رابعة و أبت أن ترافق القافلة و جلست رابعة قرب حمارها تدعو ربّها و ترجو منه الرحمة قائلة: "الهي، لقد دعوتني الى زيارة بيتك، و لقد نفق حماري في الطريق و أنا بالفيافي وحيدة..." و ما كادت تتم دعاءها- على رواية العطار- حتى ارتدت الحياة الى الحمار فألقت رابعة على ظهره متاعها، و انطلقت في الصحراء تريد اللحاق بالقافلة.

و قد اضاف العطار صاحب "تذكرة الاولياء" حكاية ثانية الى كرامات رابعة و هي أن الكعبة التي تقام حولها مراسيم الحج قد ذهبت بنفسها الى لقاء رابعة. و نحن نعلم ان اخذت هذه المقولات بظاهر المعنى فيها الخطأ و الخطر و تاريخ الفكر العربي، سواء في الدين او الفلسفة، قداحتوى حوادث عديدة و أخباراً منتسبة الى العلماء و المفكرين، لحقتهم المؤاخذة و التهمة بكثير من اقوالهم و أفعالهم، لانها فهمت على ظاهرها فهماً خاطئاً، فالقول المتواتر عن رابعة، في تطور حياتها الروحية، حين دنا موسم الحج "لا أريد الكعبة بل رب الكعبة، اما الكعبة فماذا أفعل بها؟ انها الصنم المعبود في الارض..." ربما كان منحولاً بالرغم من التواتر، على أن المفهوم من هذا القول أذ صحت نسبته لرابعة أنها تريد وجه الله وحده بقلبها و بصيرتها، و ما يتجلى لها في عبادتها و هو محض المراد من صوفيتها، و تجافيها عن الدنيا.[3]

نموذج من اقوالها العرفانية:

كانت رابعة شخصية تاريخية، و كان لها بلاريب أقوال نثراً و نظماً؛ و لا بدع اذا نطقت رابعة بالشعر، فقد فاض قلبها على لسانها شعراً، و أعانت اللغة في عصرها على البيان، و لابد أن تكون ثقافتها الدينية ساعدتها على الاقتباس و رواية الحديث و حفظ الأدعية، و هذه تدل على تمكنها من اللغة و اجادتها التعبير و الشعر المنسوب اليها و ان يكن خفيفاً ليّنا فان معانيه الصوفية رائعة سابقة، و قد تفنن الشعراء الصوفيون بعد رابعة بمثل هذه المعاني، و استخدم التورية فيما يريدون. اذكانت لهم خمرة ألاهية و دنان روحية.

و شعر رابعة و مقولاتها على معاني و التصوف اما مناجاة تفيض بالغزل و تموج بالعاطفة و الخيال أو كان نظماً مما ينشد و يردوني حلقات الذكر و مجالس الزهاد و هذه نمازج منها نظمة دعاءً و تضرعاً الى الله:

"يا سروري و منيتي و عمادي
وأنيسي وعدتي و مرادي
أنت روح الفؤادأنت رجائي
أنت لي مؤنس و شوقك زادي
كم بدت منه و كم لك عندي
من عطاء و نعمة و أيادي

---

۱) مدرس ـ ميرزا محمدعلي: ريحانة الادب، طبعة ۳، كتابفروشي خيام، تهران، ۱۳۶۹، ج ۱، ص ۲۷۹

۲) انظر كتاب العاشقة المتصوفة رابعة العدوية لوداد السكاكيني، ص ۶۹-۷۰

۳) انظر كتاب تذكرة الاولياء لفريدالدين عطار نيشابوري، ص ۹۰

حبك الآن بغيتي و نعيمي
و جلاء لعين قلبي الصادي
ان تك راضياً عليّ فإنّي
يا من القلب قدبدا إسعادى "[1]

و يروى لها أيضاً:

"انى جعلتك فى الفؤاد محدّثى
و أبحت جسمى من أراد جلوسي
فالجسم منّي للجليس مؤانس
و حبيب قلبى في الفؤاد أنيسى "[2]

و أبياتها عن الحبين، يبحث أولها عن هواه فحسب، و يبحث ثانيها عن ذات الله و جلاله، مشهورة يتردد ذكرها:

أحبّك حبّين: حب الهوى
و حباً لأنّك أهل لذاكا
فأمّا الذي هو حبّ الهوى
فسغلى بذكرك عمّن سواكا
و اما الذي أنت أهل له
فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا، و لا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا و ذاكا

و قد قال ابوطالب المكى فى كتابه "قوت القلوب":[3]

"إن حب الهوى و حب الاستحقاق يحتاجان الى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه و غيره من لم يشهده... فالأول معناه اني رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين لا من خبر و سمع و تصديق من طريق النعم و الاحساس، فتختلف محبتي اذا تغيرت الافعال لاختلاف ذلك علىّ، لكن محبتي من طريق العيان، فقربت منك، و هربت اليك، فاشتغلت بك لما تفرغت لك".

واما الحب الثاني فى تفسير المكي صاحب "قوت القلوب" فهو حبّ الاجلال لذى الاجلال، و ليست بباعثته نعمة و لا دخل فيه للمتعة الحسية، و ما يستحق الجزاء عنه، و كاد يجمع المفسرون لهذين الحبين على أن حب الهوى هو حبّ الله وحده لاحسانه اليها و رؤيته بأنعمه و فضله، و حب الاجلال لأنه تعالى هو أهل له.

نموذج من أقوالها:

"قالت رابعة: استغفرالله من قلة صدقي فى قولى أستغفرالله.

قال سفيان عند رابعة:"اللهم ارض عنى." فقالت له: "أما تستحيي أن تطلب رضا حين لست عنه راض؟!". "[4]

" ومن كلامها ايضاً: "اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم". "[5]

"ومن بين دعواتها دعاء اعتادت ان ترده بالليل من فوق سقف لها، "الهي، أنارت النجوم، و نامت العيون، و غلقت الملوك أبوابها، و خلا كل حبيب بحبيبه، و هذا مقامي بين يدك" و أيضاً: "الهى اذا كنت أعبدك خوفاً من نارك، فأحرقني بنار جهنم، و اذا كنت أعبدك طمعاً فى جنتك فأحرمنيها أما اذا كنت اعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني من مشاهدة وجهك".

"وروى أنها لما سئلت لماذا لا تطلب من أصدقائها العون أجابت:" إنى لاستحى أن أسأل الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها"، و قالت لصديق آخر: "... ان الله تعالى هو الذى يرزقنى و يرزقهم[أى الأغنياء] أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء؟ فاذا كانت هذه مشيئته، فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا".[6]

"وروى أن سفيان الثورى قال بحضرتها: واحزناه! قالت: "لا تكذب و قل واقلّة حزناه".[7]

"و قالت امرأة لرابعة:"إنى أحبّك فى الله، فقالت لها:" أطيعي من أحبتني له"، و قال رجل لرابعة:"أنى أحبك فى الله، قالت: "فلاتعص الذي أحبتني له".

"و لما قيل لرابعة: "ما تقولين فى الجنة؟" قالت:"الجار ثم الدار". "[8]

"و قالت عبدة نبت أبي شوال وكانت تخدم رابعة: "كانت رابعة تصلّى الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاّها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول اذا وثبت من مرقدها ذلك و

---

۱) السكاكيني: المرجع السابق، ص ۱۱۱

۲) فروخ- عمر: تاريخ الادب العربى، طبعة ۵، دارالعلم للملايين، لبنان، ۱۹۸۵، ج ۲، ص ۱۳۰

۳) ص ۵۷

۴) كلابادى - محمد: كتاب التعرف مع ترجمة محمد جواد شريعت، طبة ۱، اساطير، تهران، ص۹۳ و ۱۰۲

۵) الزركلى، خيرالدين: الأعلام، طبعة ۳، بدون الناشر و محل الطبع و سنة الطبع، ج ۳، ص ۳۱

۶) دائرةالمعارف الاسلامية، ج ۹، ص ۴۳۹

۷) ابن العماد الحنبلى- عبدالحى: شذرات الذهب، مكتبة القدسى، القاهرة، ۱۳۵۰، ج ۱، ص۱۹۳

۸)ابن خلكان. وفيات الاعيان تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، لبنان، ج ۲: ص ۲۸۷

هي فزعة: يا نفس! كم تنامين؟ و الى كم تقومين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها، إلا لصرخة، يوم‌النشور، و كان هذا دأبها حتى ماتت"

وروى ايضاً ان رابعة كانت تصلي ألف ركعة في اليوم و الليلة، فقيل لها: ما تطلبين هذا؟ قالت: "لا أريد به ثواباً و انما أفعله لكي يسير رسول الله(ص) القيامة فيقول للانبياء: انظروا الى امرأة من أمتي هذا عملها"[1]

وروى أحد الزهاد أنه مضى مع رابعة في ذكر الله و التسبيح له ثم أخذا يجولان فيما آتاهما الله من معرفة و فهم لأمور الدين، فأطالا الحديث و التعمق في أسرار الوجود حتى نسي الزاهد المتصوف أنه رجل و أنها امرأة، فلما انتهيا من الكلام و استجلاء المرام أحسّ هو أنه لم يكن إلا فقيراً و أنها كانت غنية بالمعرفة و الاخلاص.

كان صالح المرى الصوفي المتعبّد يحضر مجلسها و يستمع لحديثها، فلما سمعته يكثر من هذا القول "من اؤمن قرع باب يوشك أن يفتح له " قالت له رابعة مؤنّبة: "الى متى تقول هذا؟ متى أغلق هذا الباب حتى يفتح؟" فاستدرك صالح و قال: "شيخ جهل و امرأة علمت!" و بذلك أقرّلها هذا الصوفي الكبير بالعلم و المعرفة، كما أقرّلها من قبل و من بعد، أنداده و مريدوه، و يظهر من هذا التحاور و غيره مما روي عن رابعة مع المتصوفين العارفين، و الزاهدين أن كان لها فصل الخطاب فيما يتحدّثون و يتساءلون و قد اعترفوا بفضلها و براعتها في الكلام و عدّوها أستاذة لهم، و مؤدّبة و ناصحة.[2]

رحلتها الى الآخرة:

و قدروت كتب المتصوفين، و تراجم المشهورين منهم، أن رابعة كانت في المرحلة الأخيرة من حياتها الروحية، مثقلة بالعلّة و اللوعة من جهد العبادة و السنين، فكانت تبكي و تنوح لا من شدة الالم، بل كدأبها كلّما ابتهلت و تضرّعت، و قد سئلت يوماً: "ما يبكيك يا رابعة؟ و ما ذا تشكين؟" فأجابت: "وا أسفاه! إن العلة التي أشكوها من نوع لا يستطيع طبيب أن يشفيه، و دواؤها الوحيد هو رؤية الله، و مما يعينني على احتمال هذه العلة، هو رجائي في أن أبلغ رغباتي في العالم الآخر." و ألحّ عليه أحد إخوانها أن تكفّ عن البكاء، فقالت:"أخشى أن ينادي صوت في اللحظة الأخيرة: أن رابعة ليست جديرة بالمثول في حضرتنا... ".

و اعتلّ جسم رابعة و تفاني، لكن قلبها بقي مستيقظاً حافظاً، إذ كانت ترى أن من العسير تميز المقامات المختلفة في الطريق الى الله بالنظر، و ليس بالامكان الوصول إليها باللسان، فليكن قلب المتصوف العارف مستيقظاً دائماً، ليرى بعينيه الطريق، و يبلغ المقام.

ولم تكن تأكل في الأسبوع الا قليلاً، لأنّها على الرغم من اعتلالها كانت في شغل دائم بالصلاة و الصوم، فاذا أجهدتها العبادة و أصغفها الجوع انهارت ساقاها و سرى التكسّر في أعضائها فرضيت بأن تتناول طعامها و ليس فيه الا ما يسدّ الرمق، و قد عاشت فيه نباتية تأبى اللحم.

و قلّ خروجها من عزلتها، فاذا مرّت بأحد من قومها و عرفها، أقبل عليها ملتمساً دعاءها، فتقف مضطربة ملتصقة بحائط و تنهر سائلها بقولها:"من أنا؟ يرحمك الله، أطع ربك و ادعه، فأنه يجيب المضطر اذا دعاه..."

ولما اشتدّت العلّة برابعة لزمت بيتها، فكان يعودها كل يوم اصحابها من الصوفيين، و يقف ببابها المؤمنون بفضلها و تقواها، لتطمئن قلوبهم بحياتها. ولم يكن في بيتها الصغير من المتاع الا مشجباً من قصب و قد نصبت عليه أكفانها، لتذكرها دوماً بالآخرة و كان فراشها من لبن تنام فوقه و تصلّي، و قد سترت الارض بحصيرة و جلود بالية.

و في آخر أيّامها انقطعت عن الطعام حتى أحسّت دنو الموت، فأوصت خادمتها عبدة بنت أبي شوال بأن لا تعلم أحداً بوفاتها، و أن تكفنها بجبتها التي كانت ترتديها، و هي من شعر في مصلاها، و تلف رأسها بخمارها الأسود الصوفي.[3]

و قد روى أنّها لما حضرتها الوفاة قالت لأصحابها:"انهضوا و اخرجوا، و دعوا الطريق مفتوحة لرسل الله تعالى... فقد دنت منيتي! " فنهضوا جميعاً و خرجوا محزونين، فلمّا أغلقوا الباب سمعوا صوت رابعة و هي تقول الشهادة، فأجابها صوت " يا أيتها النفس المطمئنه، ارجعي الى ربّك راضية مرضية فادخلي في عبادي و ادخلي جنّتي" و أغمضت رابعة عينيها الى الأبد، و سابق جيرانها و صحبها الى

---

١) نفس المرجع ص ٢٨٨

٢) انظر كتاب العاشقة المتصوفة رابعة العدوية لوداد السكاكيني، ص ١٠٥

٣) انظر كتاب العاشقة المتصوفة لورارالسكاكيني، ص ١٣٤-١٣٦

دفنها، مترحمين عليها بعد أن صلوا عليها و شيّعوها بالدمع و التوقير.[1]

أما اختلف المؤرخون و الباحثون فى تحديد عام وفاتها لكن ذكروا مجمعين أن رابعة عاشت عمراً طويلاً، و امتلأت حياتها بالجهد و الخير و التقوى.

فابن خلكان[2] و ابن العماد الحنبلى فى "شذرات الذهب"[3] قالا ان وفاتها عام ۱۸۵هـ و ايضاً اختلف المؤرخون و الرواة فى كلامهم على موقع قبرها و الحقيقة التى توصل اليها بعض الثقات من الباحثين و المؤرخين أن العدوية البصرية توفيت بالبصرة و دفنت فيها.

"قالت خادمتها رأيتها فى المنام بعد سنة من وفاتها عليها حلّة إستبرق خضراء و خمار من سندس أخضر لم أرشيئاً قط أحسن منه، فقلت:"يا رابعة، ما فعلت بالجبة التى كفنّاكفيها و الخمار الصوف؟" قالت:" انه و الله نزع عنّى و أبدلت به ما ترينه عليّ، فطويت أكفانى و ختم عليها، و رفعت فى علّيين ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة"."[4]

"و رؤيت رابعة فى المنام، فسئلت بما أجابت منكراً و نكيراً، فقالت:"أتانى منكر و نكير فسألانى: من ربك؟ فأجبت: أيها الملكان؟ اذهبا و قولا لحضرة الله تعالى: أنت تأمر بسؤالى، أنا المرأة العجوز، بين هذا العديد من عبيدك، أنا التى لم أعرف غيرك! أفنسيتكمرّة حتى تبعث الىّ بمنكر و نكير يسألانني؟" "[5]

فرابعة العدوية التى ابتدعت الحب الالهى، فى مذهب التصوف و عاشت تبشر بتعاليم الروح النقيه و تهذيب البشرية، نجد ذكراها خالدة مجيدة، فى آثار من جاء بعدها، أو تلقّى عنها و تأدّب بأدبها من المتصوفين العارفين.

و حسبها فضلاً أن سبقت العصور الى مثال علوى خطّته للصالحين و المخلصين و عاشت فيه على معرفة و بصيرة و أيمان، و قد تركت للنساء باب عزّ و حمد لا يغلق، إذ كانت منهنّ، تقدّمت صفوف المتّقين و عدّت حجة لهن، فى العبادة و الدين.

---

۱) انظر كتاب دائرةالمعارف الاسلامية المترجمة لاحمد اشتاوى و... ص ۴۳۹

۲) و فيات الاعين، ج ۲، ص ۲۸۷

۳) ج ۲، ص ۱۹۳

۴) ابن خلكان ـ المرجع السابق، ج ۲: ص ۲۸۷

۵) دائرةالمعارف الاسلامية، ج ۹، ص ۴۳۹

مصادر المقالة

۱ـ ابن خلكان ـ ابوالعباس: وفيات الاعيان، طبعة دارالثقافة، لبنان، حققه احسان عباس.

۲ـ ابن العماد الحنبلى ـ عبدالحى بن احمد (۱۰۸۹): شذرات الذهب، طبعة مكتبة القدسى، القاهرة، سنة ۱۳۵۰.

۳ـ ابو طالب المكي ـ محمدبن على: قوت القلوب، طبعة دار صادر، لبنان.

۴ـ جامى ـ نورالدين: نفحات الأنس من حضرات القدس، الطبعة الاولى، طبعة داراطلاعات، طهران، سنة ۱۳۷۰، حققه محمود عابدى

۵ـ الزركلى ـ خيرالدين: الاعلام، الطبعة الثالثة.

۶ـ السكاكيني ـ وداد: العاشقة المتصوفة رابعة العدوية، الطبقة الولى، دار طلاس، دمشق، ۱۹۸۹ م.

۷ـ فّروخ ـ عمر: تاريخ الادب العربى، الطبعة الخامسة، دارالعلم للملايين، لبنان، سنة ۱۸۹۵م.

۸ـ كلاباذى ـ محمد: كتاب التعرف مع ترجمته، الطبعة الاولى، طبعة دار اساطير، طهران، حققه محمد جواد شريعت.

۹ـ مدرس ـ محمدعلى: ريحانة الادب، الطبعة الثالثة، طبعة مكتبة خيام، طهران، سنة ۱۳۶۹.

۱۰ـ نيشابورى ـ فريد الدين: تذكرة الولياء، الطبعة الثانية، طبعة دار بهاباد، طهران، سنة ۱۳۷۳.

۱۱ـ دائرةالمعارف الاسلامية: نقلها الى العربية أحمدالشنتاوى و محمدثابت الفندى وابراهيم زكى خورشيد و عبدالحميد يونس